مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : …-….. Issn : 2353-043X
المجلد 03/ العـدد 02: (2016)، ص 07- 33

دور العلماء و أثرهم السياسي في توحيد المغرب و الأندلس في عهد المرابطين

الأستاذة :فطيمة مطهري
جامعة تلمسان- الجزائر.

تمهيد:

كان المغرب الأقصى في أوائل القرن الخامس الهجري في محنة سياسية ودينية، حيث دعوات منحرفة عن الإسلام وحقيقته وجوهره الأصيل، واستطاعت بعض الدعوات البدعية الكفرية أن تشكل كيانا سياسيا تحتمي به، وأصبح المغرب الأقصى شبيها بالأندلس في زمن ملوك الطوائف. إن الوضع الديني المنحرف المليء بالمتنبئين والروافض والجهل العام بالدين القويم، كان يحتم أن تظهر جماعة مصلحة تصلح الأوضاع وتبين الهدي وتقضية على الشر، وأحق من يقوم بهذا الدور الإصلاحي الرائد هم العلماء المالكيون التي صقلتهم تجارب الصراع بين الحق والباطل على مدى قرون. إن علماء المالكية بالمغرب الإسلامي مع منتصف القرن الخامس هجري سيحاولون أن يطبقوا مبادئ الإصلاح ونشر الحق عن طريق إنشاء دولة هي الدولة المرابطية.

و كانت قبائل صنهاجة أقوى قبائل البربر وأشدها وأمنعها، واشتهرت بقوتها وكثرة رجالها الذين ملأوا الشمال الإفريقي، وسكنوا جباله وسهوله، وخصوصا من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، واعتبر بعض المؤرخين أن قبائل صنهاجة مثلت شعبا انضوت تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، من أهم هذه القبائل وأشهرها: لمتونة، جدالة، لمطة، ومسوفة التي تكونت منها دولة المرابطين[1].

واشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم الملثمين وأصبح اللثام شعارا عرفوا به إلى أن تسموا بالمرابطين[2]، ومواطن الملثمين، تمتد من الشمال إلى الجنوب

---

[1] ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر والطباعة والنشر بيروت، 2000، ص189.

[2] عبد المنعم حميدي: تاريخ المغرب والأندلس في عهد المرابطين، مؤسسة شباب الجامعة، 1986 ص27.

تشمل بذلك وادي السوس[1] ووادي درعة[2] وموريطانيا الحالية إلى شاطئ نهر السنغال[3].

وكانت هذه القبائل في معظمها تعيش حياة بدوية، وإن كان لبعضها مدن مثل مدينة أوليل[4]، إلا أن هذه المدن كانت في الأساس، مراكز تجارية ومحطات ربط بين المغرب وبلاد الأندلس، وعرف الملثمون الإسلام منذ القرن الأول الهجري، إذ تظهر بعض الروايات، إلى أن عقبة بن نافع قد وصل إلى مدينة نول[5] في المغرب الأقصى، وبذلك يكون عقبة بن نافع قد توغل في ديار الملثمين وهناك بنى مسجدا في مدينة ماسة[6]، وقد ترك بين هذه القبائل بعض أصحابه يعلمونهم شرائع الإسلام[7].

واستمرت جهود الولاة العرب في نشر الإسلام، فأرسل عبيد الله بن الحبحاب، حبيبا بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري[8]، غازيا إلى بلاد السوس الأقصى سنة 117 هـ، فوصل إلى المناطق الجنوبية للصحراء، حيث بلاد مسوفة ولمتونة، وأخضع القبائل الموجودة في تلك الأقاليم[9].

---

[1] وادي السوس: بلاد تقع بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط1، تح إحسان عباس بمطابع هيدلبرغ، مكتبة بيروت، 1975، ص 329.

[2] وادي درعة: واد بجنوب المغرب يقع بين مدينة درعة وسجلماسة، الحميري: المصدر نفسه، ص 336.

[3] المؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، المغرب 1979، ص 17.

[4] أوليل: جزيرة على الساحل الموريطاني، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق بصفة المغرب وأرض السودان، مصر والأندلس، نشر النص العربي وترجمه دغويهودوزي، المطبعة الشرقية لندن 1866، ص62.

[5] نول: مدينة من مدن الملثمين، تنسب إلى قبيلة لمطة، تقع على نهر يحمل نفس الاسم، خلفتها اليوم مدينة تندوف، الإدريسي: المصدر نفسه، ص 75.

[6] ماسة: مدينة في السوس الأقصى جنوب أغادير الحالية، الحميري: المصدر السابق، ص522.

[7] ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب، ج 3، ط1، تح ومراجعة ج س كولان وليفي بروفينسال، دار الثقافة بيروت 1980، ص 42.

[8] حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع: قائد من قادة المسلمين في بلاد المغرب، كان له ولأبيه وجده دور كبير في فتح بلاد المغرب. ابن عذارى المراكشي: ج3، المصدر نفسه، ص 101.

[9] حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة 1957، ص70.

وعندما قامت دولة الأدارسة، وأنشأت مدينة فاس، ازداد إسلام الملثمين وانضووا تحت لواء الأدارسة، وأصبحوا جزءا من أملاكهم، يولون عليهم الولاة، ويخضعونهم للحكومة المركزية في فاس[1]، فما كاد القرن الثالث يطلع حتى كان الإسلام قد عم الملثمين وانتشر بينهم.

وكان لإسلام الملثمين، أثر بالغ في تاريخ المغرب والسودان، فقد نتج عن ذلك قيام تحالف قوي بين بعض قبائل الملثمين (لمتونة، مسوفة وجدالة)، وكان هذا التحالف بزعامة لمتونة، أما الهدف الأساسي منه فهو مجاهدة جيرانهم من السودان[2].

ويرجع الفضل في هذا الحلف إلى تيولوتانااللمتوني[3]، الذي نشر الإسلام في السودان الغربي[4]، فملك الصحراء بأسرها، ودان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك ملوك السودان كلهم، يؤدون له الجزية[5]، وقد اتخذ مدينة أودغشت[6]، عاصمة له ثم تولى الحكم من بعده ابنه تميم (ت 306 ه).

إلا أن هذا الحلف تشتت بموت تميم، ولم يلتئم لمدة مائة وعشرون سنة[7]، سنة[7]، ثم تكون الحلف الصنهاجي الثاني في نفس القبائل السابقة بزعامة الأمير أبي عبد الله بن تيفاوت المعروف بتارستاالمتوني فاجتمعوا إليه وقدموه على أنفسهم سنة 426هـ

وبعد استشهاد الأمير أبي عبد الله تارستا، آلت زعامة الحلف إلى يحيى بن ابراهيم الجدالي صهر أبي عبد الله، ومع وصول يحيى بن ابراهيم الجدالي إلى زعامة

---

[1] ابن خلدون: المصدر السابق، ص188.

[2] أبو عبيد الله البكري: المسالك والممالك، ج2، تح أدريان فان ليوفان، وأندري فيري، الدار العربية للكتاب للكتاب 1992، ص857.

[3] ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972، ص121.

[4] السودان الغربي: يطلقها المؤرخون المسلمون على الممالك الزنجية التي تقع جنوب المغرب الأقصى، ابن خلدون: المصدر السابق، ص 371.

[5] ابن حوقل البغدادي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت 1979، ص 100.

[6] أودغشت: مدينة من مدن الملثمين، كانت تمثل الباب الجنوبي الذي تقف عنده القوافل في طريقها إلى السودان،الإدريسي:المصدر السابق، ص32.

[7] ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص121.

الملثمين، ستشهد الصحراء الكبري (موريطانيا الحالية) والمغرب الأقصى، بداية تحول عميق في تاريخها، فكيف كانت بوادر ظهور المرابطين و ما دور العلماء في تأسيس دولتهم بالمغرب؟ و فيما تمثل الأثر السياسي للعلماء و فضلهم في توحيد المغرب و الأندلس؟

أولا- بوادر ظهور المرابطين و فضل العلماء في تأسيس دولتهم:

1- رحلة الأمير يحي إلى الحج و لقاؤه بأبي عمران الفاسي: خرج الأمير يحي بن ابراهيم، من ديار الملثمين قاصدا بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، تاركا الحكم لابنه إبراهيم عام 427هـ/1035م[1]، وكانت العادة أن يقترن الحج بطلب العلم، وبعد أداء الفريضة، انطلق الأمير يحي يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية، طالبا للعلم، ولا تذكر المصادر محطات الأمير يحي إلاّ محطة القيروان ورجوعه من الحج. فقد قصد الأمير يحي ومن معه أبا عمران الفاسي[2]، ليستفتوا فقيه القيروان وشيخ المالكية فيما يحتاجون إليه من فتاوى[3].

أعجب الشيخ أبو عمران الفاسي، بالأمير يحي، لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعلم، وتحدث إليه الأمير يحي عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده، وجهل قبائلها بأصول الدين، وفروع الشريعة، وطلب من أبي عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية[4].

وتذكر بعض كتب التاريخ، أن أبو عمران الفاسي هو الذي وضع الأسس الأولى مع الأمير يحي بن ابراهيم لقيام دولة صحراوية في المغرب، على أسس دينية صحيحة، كي تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان المغرب

---

[1] سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1985، ص19.

[2] أبو عمران الفاسي: هو موسى بن عيسى بن أبي حاج وليم بن الخير الغفجوسي، وغفجوم فخذ من زناتة من هوارة، وأصله من فاس، وبيته بها بيت مشهور يعرفون ببيت أبي حاج، القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج7، تح مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط 1968، ص ص 243،244.

[3] مؤلف مجهول: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972، ص28.

[4] أحمد العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ب.ت، ص271.

يتخبط فيها. فبعد اجتماع أبي عمران الفاسي بالأمير يحيى، ندبه إلى قتال برغواطة ببلاد السوس وزناتة، على ما صدر منهما من الظلم، فوعده الأمير يحيى بالنهوض إلى ذلك[1]، فهذا النص يشير بصراحة إلى أن الرجلين فكرا في تغيير الأوضاع القائمة في المغرب الأقصى والصحراء.

وكان الأمير يحيى بن إبراهيم، حريصا على أخذ فقيه وعالم معه إلى قومه، ورأى أبو عمران الفاسي من أجل تحقيق الأهداف التي رسموها، أنه لا بد من المرور بمراحل ضرورية في بناء الدولة المنشودة، من مرحلة التعريف بالمنهج وتكوين أفراده وتربيتهم عليه، وتنفيذ السياسة المرسومة بعد التكوين للوصول إلى مرحلة القوة والتمكين[2].

فأحال أبو عمران الفاسي الأمير يحيى على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب، وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي، وكان لهذا الأخير ببلاد السوس دار تسمى دار المرابطين، ومن هذا الرباط أرسل وجاج صحبة الأمير يحيى، الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم[3].

وكان الأمير يحيى بجانب تفكيره في إخراج قومه من الظلمات إلى النور، يفكر في إنقاذ قومه من الهيمنة الزناتية الظالمة، التي كانت قبائل صنهاجة الملثمة تعاني من جورها وقسوتها.

لقد رأى الأمير يحيى أن طريق عزة قومه في تمسكهم بالإسلام الصحيح، وقد لاحظ الأمير أن كل من حركوا القبائل البربرية وهيؤوها لإنشاء الدول، كانوا جميعا من المتحمسين من علماء الدين أو أصحاب الدعوات الدينية، سواء كانت خارجية أو شيعية أو إدريسية[4].

---

[1] أحمد العبادي: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[2] حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ج2، نشر العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت 1992، ص160.

[3] بن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 123.

[4] حسين مؤنس: ج2، المرجع السابق، ص 163.

2- جهود عبد الله بن ياسين في تأسيس الدولة:هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، نسبة إلى قبيلة جزولة في أقصى المغرب[1].

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا، ثم رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين[2]، واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية، ثم أصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلوا، فعندما طلب أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيها، عالما، ورعا، تقيا، ومربيا فاضلا، وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الذي كان عالما بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم[3].

وصل عبد الله بن ياسين إلى بلاد الملثمين صحبة الأمير يحيى بن إبراهيم، حيث لقي كل ترحيب وحفاوة، لكن واقع الملثمين هاله لما وجدهم عليه من بعد عن الدين وخروج على مبادئه، وجهل بالمعروف من الدين بالضرورة، فكان الرجل منهم يتزوج من النساء ما شاء[4]، فنهاهم عن ذلك وكان يتدرج بهم في فهم الإسلام، من البسيط إلى المعقد، فكان يفسر لهم القرآن ويروي لهم الحديث[5].

استمر الفقيه عبد الله بن ياسين في تعريف الناس بأصول دينهم وأحكامه والأخلاق التي تطلبها شريعتهم وحارب التقاليد والأعراف السيئة بكل شجاعة وجرأة.

إلا أن الله تعالى ابتلاه بقوم غلاظ الأكباد، قساة القلوب، فاصطدمت دعوة المصلح الفقيه بأطماعهم، فتعرض للتضييق والشدة والعسف من بعض وجهاء قبائل صنهاجة من قبيلة جدالة، فأشار الأمير يحيى بن إبراهيم، على عبد الله بن ياسين أن يذهبوا إلى جزيرة في حوض السنغال[6].

---

[1] بن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 124.

[2] ابن عذارى المراكشي: ج3، المصدر السابق، ص 10.

[3] ابن عذارى المراكشي: ج3، المصدر نفسه، ص15.

[4] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص 20.

[5] عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا مع نشر وتح، أبي بكر العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص 63.

[6] عصمت دندش: المرجع السابق، ص 64.

دخل عبد الله بن ياسين الرباط في نفر قليل تحدده الروايات بتسعة أشخاص[1]، عاشرهم عبد الله بن ياسين وكان هؤلاء النفر هم النواة التي كونت المجتمع الجديد، ومن أبرز رفاق ابن ياسين في هذه المرحلة الحاسمة يحيى بن عمر اللمتوني وأخوه أبو بكر بن عمر، اللذين سيكون لهما دور كبير في إقامة دولة المرابطين.

لم تمض غير فترة وجيزة حتى تسامع الناس بأخبار ابن ياسين وأخبار أهل الرباط، فبدأ الناس يتوافدون من كل ناحية وكل قبيلة. أخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن، ويعلمهم السنة ويستميلهم إلى الآخرة، ويرغبهم في ثواب الله عز وجل، فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلاميذ نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة[2].

عندئذ أطلق عبد الله بن ياسين على أتباعه اسم المرابطين[3]، وطلب منهم أن يخرجوا على بركة الله وينذروا قومهم ويخوفوهم عقاب الله، ويبلغوهم حجته فإن تابوا ورجعوا إلى الحق أخلوا سبيلهم،وإن أبوا عن ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين[4].

بدأ المرابطون بقبيلة جدالة، فغزوهم في ثلاثة آلاف فقتل منهم خلق كثير وأسلم الباقون إسلاما صحيحا، وأدوا جميع ما فرض الله عليهم وذلك في سنة 434 هـ[5]، ثم سار إلى لمتونة فنزل بهم وقاتلهم حتى ظهر عليهم، ثم سار إلى مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له بالعودة على ما بايعته عليه لمتونة وجدالة، فلما رأت ذلك باقي قبائل صنهاجة سارعوا إلى التوبة.

شاع في بلاد المغرب الأقصى خروج المرابطين بالصحراء، وأن دعوتهم مبنية على دين متين، فحدقت إليهم العيون وصرفت إليهم الوجوه[6]، وكان المغرب الأقصى

---

[1] بن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 125.

[2] بن أبي زرع الفاسي: المصدر نفسه، ص126.

[3] بن عذارى المراكشي: ج4، المصدر السابق، ص122.

[4] إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج1، نشر دار السلمي، الدار البيضاء 1965، ص 170.

[5] إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص 171.

[6] أحمد العبادي: المرجع السابق، ص 297.

في هذا العهد يخضع لحكم زناتة، وقد عرف حكمهم بانتشار الفساد والضرائب المجحفة[1].

تعلقت إذن آمال أهل المغرب الأقصى بالمرابطين، وإمامهم عبد الله بن ياسين لإنقاذهم مما هم فيه، وإصلاح أحوالهم، وفي سنة 446 هـ، اجتمع فقهاء سجلماسة[2]، وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين ليحررهم من جور أميرهم مسعود بن واندين المغراوي[3].

عندها بدأ عبد الله بن ياسين بالاستعداد، وخرج في جيش عظيم سنة 446 هـ، فاحتل درعة واشتبك مع مسعود بن واندين المغراوي، فكان النصر للمرابطين وقتل مسعود بن واندين المغراوي.

بعد دخول درعة وسجلماسة، قام عبد الله بن ياسين بإصلاح أحوالها وغير ما وجد من منكرات، ثم عاد إلى الصحراء مع معظم جيش المرابطين، وترك في سلجماسة حامية لرعاية مصالح الناس ووضع عاملا على المدينة لإدارة شؤونها[4].

أدرك عبد الله بن ياسين أن تغيير الأوضاع في المغرب الأقصى يحتاج من المرابطين أن يكون لهم وجود دائم في المنطقة، فالعمل الذي يقوم به ابن ياسين ليس غارة لجني بعض المكاسب المادية، ولكنه عملية إصلاح يراد لها البقاء، لهذا فقد قرر عبد الله بن ياسين إنشاء مدينة مرابطية هي مدينة تبلبلا[5].

وفي الوقت الذي كان فيه عبد الله بن ياسين يستعيد سجلماسة، كان الأمير يحي بن عمر يخوض معارك شرسة ضد قبيلة جدالة[6]، التي خرجت على الطاعة، وقد استشهد الأمير يحي في هذه المعارك.

---

[1] أحمد العبادي: المرجع نفسه، ص 298.

[2] سجلماسة: مدينة تقع في جنوب المغرب أنشأها الخوارج الصفرية سنة 140هـ، ابن عذارى المراكشي: ج1، المصدر السابق، ص 215.

[3] مسعود بن واندين المغراوي: ابن خزون ابن خلقون الهزرجي، أمير من أمراء مغراوةالزناتيين، ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 127.

[4] ابن عذارى المراكشي: ج4، المرجع السابق، ص13.

[5] تبلبلا: مدينة أنشأها المرابطون، أبو عبيد الله البكري: ج2، المصدر السابق، ص 860.

[6] أبو عبيد الله البكري: ج2، المصدرنفسه، ص862.

كان عبد الله بن ياسين هو الحاكم الفعلي المطاع للمرابطين، وكان بإمكانه تولي الإمارة لو رغبفي دلك ، لكنه رأى أن أبا بكر بن عمر اللمتوني أهلا للإمارة، فقد كان رجلا صالحا كأخيه يحيى وكان من أوائل أصحاب عبد الله بن ياسين الذين دخلوا معه الرباط[1].

ندب عبد لله بن ياسين الأمير أبا بكر بن عمر، إلى غزو السوس وبلاد المصامدة، فخرج إليها في جيش عظيم سنة 448هـ، فبدأ بغزو جزولة، ثم فتح مدينة ماسة، وقد أطاعته تلك المدينة كلها، ولم تبد مقاومة تذكر[2].

ثم دخل المرابطون مدينة أغمات سنة 449هـ، وأقام بها عبد الله بن ياسين شهرين يمهد أمرها ويستصلح أحوالها ويريح جنده، ثم نهض إلى بلاد تادلا وكانت خاضعة لبني يفرن من زناتة، ففتحها وقتل من وجد بها من بني يفرن وظفر بلقوط المغراوي فقتله[3].

كان جهاد عبد الله بن ياسين للبرغواطيين من أولوياته، لاستئصال شأفة كل المارقين، حيث سار عبد الله بن ياسين إليهم في أعداد كبيرة من المرابطين، ومن أتباعه الجدد المصامدة يصحبه الأمير أبو بكر بن عمر[4]، إذ نشبت بين الطرفين وقائع وقائع عظيمة قتل فيها من الطرفين خلق كثير واستشهد فيها إمام المرابطين عبد الله بن ياسين سنة 451 هـ[5].

لقد قطع عبد الله بن ياسين شوطا كبيرا من درب تكوين المرابطين، فعند رحيله كان المرابطون قوة سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية قوامها الدين، تحتل رقعة شاسعة تمتد من نهر السنغال إلى وسط المغرب الأقصى[6]، لها عملة

---

[1] عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب (عبد الله بن ياسين) دار الكتاب اللبناني، دار الكتابة والنشر، بيروت 1971، ص22.

[2] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص23.

[3] لقوط المغراوي: آخر أمراء أغمات من مغراوة، قتله المرابطين سنة 450هـ، ابن خلدون: ج6، المرجع السابق، ص376.

[4] ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 131.

[5] ابن أبي زرع الفاسي: المصدر نفسه، ص 132.

[6] حسن محمود:قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة 1957، ص 153.

مضروبة[1]، وعاصمة وبيت مال، وفوق كل هذا ترك عبد الله بن ياسين لأتباعه هدفا ساميا يعيشون من أجله، هو اعلاء كلمة الله،وقد حرص عبد الله أن يتجلى هذا في كل أعمال المرابطين، فالنقود التي ضربوها سنة 450 هـ، مكتوب عليها الشهادتان والآية الكريمة:"من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين"[2].

لم يكن عبد الله بن ياسين مجرد فقيه بل كان صاحب دعوة في الإصلاح[3].

ثانيا- دور العلماء في توحيد المغرب و الأندلس:

1- أوضاع الأندلس عند قيام دولة المرابطين: لقد ساد التفكك السياسي في بلاد الأندلس، منذ سقوط دولة بني أمية بالأندلس إلى دويلات تتجاوز العشرين، عرفت باسم دول أو مماليك الطوائف، ومن أهم هذه الدويلات إمارة بني عباد في اشبيلية[4]، اشبيلية[4]، إمارة بني جهور في قرطبة[5]، وبني الأفطس في بطليوس[6]، وبني ذي النون في في طليطلة[7]، وبني زيري في غرناطة[8]، وبني صمادح في المرية[1]، وبني هود في سرقسطة[2]. سرقسطة[2].

---

[1] الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986، ص 102.

[2] حسن محمود : المرجع نفسه ,ص 160

[3] حسن محمود: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[4] تأسست في اشبيلية عام 414 هـ، واستمرت حتى عام 484هـ، ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام –قسم الأندلس– نشر ليفي بروفينسال بعنوان تاريخ اسبانيا الإسلامية، دار المكشوف، بيروت 1956، ص ص127،151.

[5] تأسست في قرطبة عام 424هـ واستمرت حتى 462هـ، عندما سقطت في يد المعتمد بن عباد، ابن بسام: بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج2، ق1، تح إحسان عباس، دار الثقافة بيروت 1979، ص ص 114،116.

[6] تأسست بعد سقوط الخلافة الأموية واستمرت حتى سقطت بيد المرابطين سنة 484هـ، ابن عذارى المراكشي: ج3 المصدر السابق ، ص ص 236،237.

[7] تأسست سنة 427هـ إلى أن سقطت سنة 478هـ في يد ألفونس السادس، ابن عذارى المراكشي: ج3، المصدر نفسه، ص ص 276،282.

[8] تأسست سنة 403هـ إلى أن سقطت سنة 483هـ بيد المرابطين، ابن عذارى المراكشي:ج3، المصدر نفسه، ص167.

وقد تلقب هؤلاء بألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى بالمعتضد، وبعضهم تسمى بالمأمون وآخر بالمعتضد إلى غير ذلك من الألقاب وفي ذلك يقول أبو الحسن بن راشيق:

مما يزهدني في أرض الأندلس سماح مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد[3].

كان استقلال هذه الإمارات استقلالا واهيا، فقد كانت تفتقد لأبسط مقومات الدولة، إذ اتسمت بأسسها الهشة، وافتقرت إلى قاعدة تضمن لها كيانا صلبا، وقد كان حكام هذه الإمارات مستبدين مستهينين بالدماء، مكثرين من أسباب الترف، إذا اقتصر كل همهم على الانغماس في اللذات ومحاربة بعضهم بعضا، وفي الاستعانة في سبيل ذلك بالنصارى الإسبان ودفع الإتاوات لهم اتقاء شرهم.

وفي مقابل ذلك كان النصارى الإسبان قد أعلنوا حرب الاسترداد[4]، وقد بلغت حركة الاسترداد هذه قوتها مع فرناندو الأول[5]، وابنه الفونسو السادس، فقد بدأت الأراضي والحصون الإسلامية تسقط تباعا، ورقعة الأندلس الإسلامية تنكمش، وبات الوضع يؤدي بزوال الإسلام.

أمام هذا الوضع اليائس، كان الأمل معلقا على العلماء لكونهم أئمة الناس وملاذهم في المحن، لكن حال أغلبهم كان مثل حال أمرائهم في الإخلاد إلى الأرض،

---

[1] تأسست سنة 429هـ إلى أن سقطت سنة 484هـ بالمرابطين، ابن عذارى المراكشي: ج3، المصدر نفسه، ص 168.

[2] تأسست سنة 431هـ إلى أن سقطت سنة 512هـ بيد النصارى، ابن عذارى المراكشي: ج3، المصدر نفسه، ص ص 224،223.

[3] المراكشي عبد الواحد:المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط07، تح محمد العربان ومحمد العلمي، دار الكتاب المغرب 1978، ص 5.

[4] سميت بحرب الاسترداد لأنها كانت تهدفالى استرداد الأندلس من المسلمين، شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، تر محمد مزالي والبشير سلامة، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1970، ص 111.

[5] فرناندو الأول (حكم بين عام 1035 و1065 م: ملك قشتالة وليون، استطاع إخضاع ملوك الطوائف وإرغامهم على دفع الجزية، محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس "دول الطوائف"، مكتبة الخانجي، القاهرة 1988، ص 384.

والنأي عن تحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقهم، ويصف ابن بسام تلك الحال بقوله:"والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذ بالتقية في نصحهم وأولئك هم الأقلون فيهم"[1].

ومع ذلك فإن بقية من العلماء من ذوي القلوب الحية بالعلم والضمائر المستنيرة بالإيمان، استنكرت هذا الوضع ورفعت راية الإصلاح بالوحدة ومدافعة العدو، ومن هؤلاء العلماء الذين صرخوا بالحق وتحملوا تبعات ذلك، مقتنعين أن ذلك واجبهم، فمن هؤلاء أبو محمد بن حزم (ت 456هـ)[2]، الذين آلمه ما آلت إليه أوضاع الأندلس من سوء جره عليها أمراء لا هم لهم إلا مطالبهم الذاتية من غير اعتبار لدين ولا مصلحة.

بل أن ابن حزم يقسم بالله أن هؤلاء الملوك "لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم، لبادروا إليها"، ويستدل ابن حزم على هذا بما رآه في السابق من تصرفات هؤلاء الأمراء، في سعيهم للبقاء على كراسيهم، إذ بدلوا الدين والوطن، ورضوا الدنية، فقد مكنوا النصارى من بلاد الإسلام، فربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا، فأخلوها من الإسلام وعمرها النواقيس، لعنهم الله وسلط عليهم سيفا من سيوفه[3].

وقد اعتبر ابن حزم نظام دول الطوائف نظاما غير شرعي على أساس أن الأمويين وحدهم أصحاب الحق الشرعي في حكم الأندلس[4].

ومن هؤلاء العلماء الذين أحزنهم ضعف المسلمين بالأندلس، الفقيه أبو حفص بن الحسن الهوزني[1]، فقد تأثر هذا الفقيه تأثرا عميقا بالهجوم المسيحي على

---

[1] ابن بسام: ج5، ق 2، المصدر السابق، ص 180.

[2] أبو محمد بن حزم: عالم من علماء الأمة، ظاهري المذهب، من أهم كتبه كتاب "المحلى" في الفقه، ابن بشكوال:الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهموأدبائهم، ج2، ط2، نشر عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة 1994، ص ص 395،396.

[3] ابن حزم:رسائل ابن حزم الأندلسي، ج3، تح د.إحسان عباس، مكتبة الخانجي، مصر 1960، ص 175.

[4] ابن بسام:، ج1، ق 2، المصدر السابق، ص 169.

على بربشتر سنة 406 هـ، وتألم للمذابح والمآسي التي عاناها السكان، فبعث إلى المعتضد بن عباد أمير إشبيلية[2]، وأقوى ملوك الطوائف، رسائل ملتهبة حماسا يحرضه فيها على تزعم الجهاد ضد النصارى الإسبان. وشرح له في هذه الرسائل حال المسلمين السيئة حكاما ومحكومين، مما قاله في هذه الرسائل:

أيا أسفا للدين إذ ظل نهبة بأعيننا والمسلمون شهود
أعيذكم أن تذهبوا في مسكم عقابا كما ذاق العذاب تمود.
وأقبح بذكر يستطير بأرضكم يؤم بها أقصى البلاد وفود[3].

وفي هذا الوضع المتداعي، كان كل يوم من العهد الطائفي يحمل كارثة جديدة على الإسلام وأهله في الأندلس، وكان سقوط طليطلة بيد ألفونس السادس في محرم 478هـ/(1085م) قمة هذا الانهيار.

2- سقوط طليطلة واستنجاد العلماء الأندلسيين بالمرابطين: لما كان سقوط مدينة طليطلة في يد ألفونس السادس، هو السبب المباشر لاستصراخ أهل الأندلس بالمرابطين، فإنه من المناسب أن نوضح كيف سقطت هذه القاعدة الكبرى من قواعد الإسلام، وملابسات ذلك السقوط.

كانت طليطلة تحت حكم بني ذي النون من أمراء الطوائف، ومن أشهر أمراء هذه الأسرة المأمون بن ذي النون (ت467هـ)[4]، فقد بلغت في عصره إمارة بني ذي النون ذروة مجدها، وأصبح يضاهي ملك بني عباد في اشبيلية. فلما توفي خلفه في حكم طليطلة حفيده يحيى الملقب بالقادر، وكان فتى حدثا قليل الخبرة. وكانت أولى سقطاته، أن تخلص من وزير جده الفقيه

---

[1] أبو حفص الهوزني: فقيه اشبيلي جريء لا يخشى في الحق لومة لائم ونتيجة لذلك قتله المعتضد بن عباد سنة 460هـ، و أيضا، ابن بسام: ج1، ق2، المصدر السابق،ص- ص 182- 184.

[2] المعتضد بن عباد: ثاني أمراء بني عباد في اشبيلية حكم من سنة 433 إلى 461هـ، ابن بسام: ج1، ق2،المصدر نفسه، ص 160.

[3] ابن بسام: ج 1، ق 2، المصدر نفسه، ص25.

[4] المأمون بن ذي النون (ت 467هـ) تولى الحكم في طليطلة سنة (435هـ /467هـ). محمد عنان: المرجع السابق، ص361.

أبو بكر بن الحديدي، الذي اختصه المأمون بالنظر في الشؤون المالية وشؤون الرعية وإبداء الرأي والمشورة[1]، فقتله القادر.

وبمقتل الفقيه ابن الحديدي انقسمت طليطلة إلى فريقين متصارعين كل منهما يتربص بالآخر[2].

وفي نفس الفترة تعرضت أملاك القادر لشن الغارات، من ابن هود صاحب سرقسطة[3]، وإزاء هذه المشاكل الخانقة، رأى القادر أن الحل الوحيد هو أن يلجأ إلى ألفونسو السادس، وأن يلتمس عونه وحمايته.

وفي سنة 472 هـ، ثار أهل طليطلة على القادر، فاضطر إلى الفرار والاستنجاد بألفونسو، الذي استجاب لدعوته وأعاده إلى ملكه سنة 474 هـ، على رغم من أهلها[4].

لم تكن استجابة ألفونسو حبا في القادر، ولا وفاء بسالف الود، بل كانت بداية لمخطط بيته لغزو طليطلة، وكان المخطط قائما على إنهاك قوة طليطلة وإضعاف مواردها قبل غزوها[5]، فبدأ منذ ذلك التاريخ بشن الغارات على نواحي طليطلة بحجة وبغير حجة،وقد استولى على كثير من حصونها[6]. دامت هذه الهجمات أربع سنوات، لم تجد طليطلة خلالها ناصرا ولا مدافعا، وفي سنة 477 هـ، زحف ألفونسو السادس على طليطلة بجيش كبير وضرب الحصار حول المدينة، التي استسلمت في محرم 478 هـ[7]، وقد اتخذ ألفونس طليطلة عاصمة لمملكته وحول جامعها إلى كنيسة[8].

---

[1] ابن بشكوال: ج1، المصدر السابق، ص384.

[2] ابن الخطيب: المصدر السابق، ص 179.

[3] محمد عنان:المرجع السابق، ص 181.

[4] ابن بسام: ج1، ق3، المصدر السابق، ص 124.

[5] ابن بلقين: التبيان، تح أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط 1995، ص 101.

[6] يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط2، تر محمد عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة 1952، ص 57.

[7] المقري: نفخ الطيب، ج5، تح يوسف اليقاعي، دار الفكر، يروت 1986، ص 84.

[8] ابن بسام: ج1، ق3، المصدر السابق، ص 167.

هنا بدأ عقلاء أهل الجزيرة الأندلسية يفكرون في مخرج جدي لهذا الوضع المنذر بالزوال، كانت الحلول المتاحة قليلة تكاد تقتصر على سبيلين لا ثالث لهما:

-توحيد كلمة ملوك الطوائف لمجابهة الخطر المسيحي ونبذ التفرقة فيما بينهم.

-أما السبيل الثاني فهو الاستنجاد بالمسلمين من أهل المغرب وإفريقية.

ومن أبرز من سعى في هذا الطريق، العالم الكبير أبو الوليد الباجي، الذي رفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة، فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف آذان صاغية. بل نفخ في عظام نخرة، وعكف على أطلال داثرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره، لقيه بالترحيب وأجزل حظه بالتأنيس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وما أفطن الفقيه -رحمه الله- بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالا تثوب ومذنبا يتوب[1].

قد توفي الباجي- رحمه الله- أثناء تأديته هذا الواجب، سفيرا بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام[2].

ومع تردي الوضع اليائس من أمراء الطوائف، أن تثوب حالهم أو يتوب مذنبهم، بدأ العلماء بالتفكير جديا في الاستعانة بالمرابطين.

لقد كانت وفود أهل الأندلس يتقدمهم فقهائهم، وقد بدأت تفد على يوسف بن تاشفين، قبل سقوط طليطلة مستعطفين مجهشين بالبكاء[3]، وقد كانت هذه الوفود تستعين في سعيها لدى يوسف بفقهاء بلاطه[4]، وكان يوسف إزاء هذه المناشدات يعد خيرا، فلما سقطت طليطلة عقد اجتماع في قرطبة حضره جماعة من فقهائها على رأسهم قاضيها عبد الله بن محمد بن أدهم (ت 486هـ)، فتشاور الجميع في حال بلاد الأندلس، وما وصلت إليه من الذل والصغار، اقترح بعض المشاركين الاستنجاد بعرب إفريقية الهلاليين، ولكن القاضي تخوف من وصولهم وتخريبهم للبلاد، كما فعلوا بإفريقية، وفي مقابل ذلك اقترح بن أدهم أن يستنجدوا

---

[1] ابن بسام: ج1، ق 2، المصدر السابق، ص95.

[2] القاضي عياض: ج3، المصدر السابق، ص 127.

[3] الحميري: المصدر السابق، ص 288.

[4] الحميري: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

بالمرابطين فهم "أقرب إلينا وأصلح حالا". فطلب منه المجتمعون أن يكاتب يوسف ابن تاشفين وأن يستدعيه وفوضوه بالأمر[1].

كان مؤتمر قرطبة أول اجتماع للخروج بالأندلس من محنتها، بزعامة الفقهاء وتجاوز أمراء الطوائف العاجزين، لقد أظهر هذا المؤتمر استعداد العلماء لتحمل مسؤولياتهم التاريخية في المحافظة على بناء الأندلس الاسلامية، وألا يظلوا مكتوفي الأيدي في هذا الظرف الحاسم.

يبدو أن خبر هذا المؤتمر، قد وصل إلى المعتمد بن عباد، وكانت قرطبة إحدى توابع ملكه، فقدم إلى قرطبة من اشبيلية، ويمكن أن نتصور بسهولة الحرج الذي أصبح فيه المعتمد غداة هذا المؤتمر، فهو الآن بين عدو يثقل كاهله بالمطالب المهينة والمذلة[2]، ورعية فقدت ثقتها في قدرته على الدفاع عنها.

لهذه المعطيات تقرر عند المعتمد ضرورة الاستنجاد بالمرابطين، مسايرة لهذه الرعية ونكاية في ألفونسو، فلما وصل المعتمد إلى قرطبة أعلمه القاضي ابن أدهم بأمر الاجتماع وما دار فيه، فاستصوبه المعتمد[3]، ويبدو أن النتيجة التي وصل إليها المعتمد بضرورة الاستنجاد بالمرابطين، قد وصل إليها معظم أمراء الطوائف، إلا أن المعتمد كان أول من بادر منهم إلى هذه الخطوة[4]. وندب باقي أمراء الطوائف لتشكيل وفد لإرساله إلى يوسف بن تاشفين، وبالفعل تشكل وفد من العلماء يضم كلا من قاضي قرطبة أبي بكر بن أدهم، وقاضي غرناطة ابن القليعي، وقاضي بطليوس ابن مفاذا، وحمل هذا الوفد رسالة إلى يوسف بن تاشفين تبين حال الأندلس ويدعوه إلى الجواز إليها لإنقاذها من النصارى[5].

3- العلماء و معركة الزلاقة: لقد أسفرت المراسلات بين أهل الأندلس والمرابطين، والتي تزعمها الفقهاء في كلتا العدوتين: الأندلسية بأن رفعوا ضرورة الاستنجاد بالمرابطين، ثم أقنعوا الأمراء بهذا الرأي، وفي العدوة المغربية أقنع الفقهاء أمير

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، مطبعة دار الصادر، بيروت 1982، ص 141.

[2] من المطالب المهينة: طلب ألفونس من المعتمد السماح له بإدخال امرأته القمطيجةcondesa إلى جامع قرطبة لتلد فيه، ابن الخطيب: ج 2، المصدر السابق، ص159.

[3] ابن الأثير: ج8، المصدر السابق، ص 141.

[4] محمد عنان: المرجع السابق، ص 317.

[5] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص ص 46،45.

المسلمين بضرورة نصرة أهل الأندلس، وأن ذلك واجب عليه[1]. أسفرت هذه المراسلات والوفود عن جواز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 479 هـ، وقد اغتبط العلماء لهذا الجواز إذ اعتبروه نصرا في حد ذاته[2].

وقد كان أول من تلقى يوسف بن تاشفين من الأمراء هو المعتمد بن عباد، الذي أكرمه ودعاه إلى النزول إلى اشبيلية للراحة من الرحلة، لكن يوسف بن تاشفين اعتذر له قائلا:"أنا جئت ناويا جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه"[3].

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو السادس يحاصر سرقسطة، فلما بلغه جواز يوسف بن تاشفين، رفع الحصار عنها، وبدأ يحشد القوى النصرانية ويستنجد بأمم مسيحية أخرى، فوفدت إليه سرايا من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية، وتحالف مع سانشورا ميرت ملك أرغون، والكونت برنجار ريموند، فانضما إليه بقواتهما وتكون من الجميع جيش جرار[4].

والتقى الجيشان المرابطي، وقد انضمت إليه قوات المعتمد وبعض السرايا التي بعثها بعض من أمراء الطوائف، مثل ابن صمادح صاحب المرية، وابني بلقين صاحبي غرناطة ومالقة الذين حضرا بأنفسهما، والجيش المسيحي شمال بطليوس في فحص الزلاقة، حيث دارت معركة كبرى من معارك الوجود الإسلامي في الأندلس[5].

فمع فجر يوم 12 رجب سنة 479 هـ، باغتت قوات ألفونسو معسكرات أهل الأندلس، فانهزم هؤلاء عند أول لقاء ودارت عليهم الدائرة، وأرسل ابن عباد عند ذاك كاتبه ابن قصيرة إلى يوسف بن تاشفين، فركب يوسف من فوره على رأس

---

[1] ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، تح د.حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة 1963، ص97.

[2] لقد عبر عن هذا الشعور الفقيه ابن القليعي، إذ اعتبر أن هذا الجواز وقع على رغم أنوف سلاطين الأندلس، ابن بلقين: المصدر السابق، ص 134.

[3] المراكشي:المعجب،المصدر السابق، ص 132.

[4] لقد اختلف المؤرخون في عدد جيش النصارى في موقعة الزلاقة، فنجده بمائة وثمانينالف فارسا، ومائتي ألف رجل، ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص199. ويقدره آخر بثمانين ألف فارس دون غيرهم. مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص 56.

[5] ابن خلدون: ج6، المصدر السابق، ص 186.

قواته وقصد محلة ألفونسو "فاقتحمها وأضرمها نارا وضرب طبوله فاهتزت لها الأرض وتجاوبت الآفاق، فارتاعت لها قلوبهم وتخلخلت أفئدتهم، ورأوا النار تشتعل في محلتهم، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخبيتهم. فسقط في أيديهم فألووا أعنتهم، ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمت الفئتان واشتدت الكرة وعظمت الهجمات"[1].

وقد أشرك الأمير يوسف بن تاشفين في المعركة حرسه الخاص، وهم فرقة العبيد وكانوا مسلحين بمزاريق الزان، وسيوف الهند، ودرق اللمط، فانقضوا كالصاعقة على قوات النصارى، وتمكن أحدهم من طعن ألفونسو في فخذه طعنة بالغة لازمه أثرها بقية عمره[2].

دامت المعركة بين الطرفين يوما واحدا، أسفرت عن هزيمة ساحقة للقوات النصرانية، فقد كان موضع المعترك على اتساعه، ما كان فيه موضع قدم إلا عليه ميت أو جريح[3]، وتمكن ألفونسو بعد إصابته من الفرار في جماعة قليلة من جنده[4].

لقد انتصر المرابطون في هذا اليوم انتصارا عظيما، عم به الفرح والسرور في بلاد الأندلس والمغرب، واعتبرت في معارك المسلمين الكبرى والمفاخر العظمى للمرابطين، يقول القاضي ابن العربي:"ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة ... لكان ذلك من أعظم فخرهم"[5].

لقد كان للعلماء دور كبير وحاسم ابتداءا بالتهيئة كما رأينا سابقا، ثم المشاركة الفعلية، حيث بذل العلماء جهدهم في وعظ المسلمين، وحثهم على الصبر والثبات وترغيبهم في ما عند الله من أجر عظيم، وتحذيرهم من الفشل والتولي يوم الزحف[6].

---

[1] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص60.

[2] ابن خلكان: وفيان الأعيان، ج7، تح د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1975، ص 117.

[3] الحميري: المصدر السابق، ص 291.

[4] ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 148.

[5] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدرنفسه ، ص 140.

[6] المقري: ج6، المصدر السابق، ص 145.

وقد استشهد في هذه المعركة جماعة من العلماء منهم، قاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصمودي، ورفيقه الفقيه أبو محمد يعلى المصمودي الذي كان قاضيا بالعدوة[1].

وممن استشهد أيضا الفقيه أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي[2]، وكان من أهل العلم والورع والفضل، قال عنه ابن بشكوال:"واستشهد بالزلاقة مقبلا غير مدبر"[3].

وممن استشهد أيضا الفضل ولد الحافظ أبي محمد بن حزم وكان من أهل العلم[4]، أما الذين حضروا المعركة من العلماء المرابطين فكثير، كان في طليعتهم قاضي الجماعة بمراكش يوسف بن الملجوم، والفقيه أبو مروان العذري، والفقيه أبو بكر بن القصيرة الذي خلف لنا إحدى الروايات الميدانية عن معركة الزلاقة[5].

4- جهود العلماء في اسقاط ملوك الطوائف[6]: ما إن انتهت معركة الزلاقة حتى عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب بشكل مفاجئ[7]، ومنع المرابطين أن يجنوا ثمار النصر كاملا وأن يجعلوا من معركة الزلاقة أكثر من صدمة قوية للإسبان، فما كاد يعود حتى بدأ الطرفان المؤثران في الأحداث السياسية في الأندلس يسعى إلى تحقيق أهدافه.

---

[1] ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق 2، تح محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 1984، ص 425.

[2] أن الفقيه ابن رميلة رأى ليلة معركة الزلاقة، وكانت ليلة جمعة رؤيا بشره فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصر المسلمين صبيحة تلك الليلة، والشهادة له، فتأهب ابن رميلة، المقري: ج6، المرجع السابق، ص 145.

[3] ابن بشكوال: ج2، المصدر السابق، ص 678.

[4] ابن بسام: ج1، ق2، المصدر السابق، ص 241.

[5] ابن بسام: ج1، ق2، المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[6] ملوك الطوائف: أمراء الطوائف من العرب و البربر و الموالي، أسسوا لأنفسهم دويلات أندلسية عددها23، و ذلك بعد انحلال عقد الخلافة الأموية، ينظر، مريم قاسم الطويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ط1، دار الكتب العلمية، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، 1994، ص84.

[7] اختلف المؤرخون في السبب الذي جعل يوسف بن تاشفين يرجع بشكل مفاجئ إلى المغرب، فمنهم من قال أن سبب عودته موت ابنه الأمير أبو بكر، ومنهم من يقول هو موت ابن عمه الأمير أبو بكر بن عمر، حسن بن محمود: المرجع السابق، ص286.

فقد عاد أمراء الطوائف إلى سيرتهم الأولى من الاختلاف فيما بينهم والاتصال بالعدو، وأداء الجزية، رغم ما تعهد به هؤلاء الأمراء في الاجتماع الذي دعاهم إليه يوسف قبل انصرافه إلى المغرب، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي استغل تشتتهم، وقد قرر الأمراء في الاجتماع قبولهم لهذه الوصية،وأنهم سيسعون لتحقيق رغبة أمير المسلمين[1]،وفي سبيل محاربة هذا العدو ترك لهم أمير المسلمين ثلاثة آلاف جندي بقيادة سير بن أبي بكر[2].

نتيجة لتصرفات هؤلاء الأمراء اضطربت الأحوال من جديد في الأندلس، وبدأ النصارى يستعيدون بعض قوتهم وركزوا عدوانهم على شرقي الأندلس: بلنسية[3]ومورسية[4]، فبثوا الرعب وقد اتخذ النصارى من حصن لييط (أليدو) المنيع المنيع قاعدة لتلك الهجمات[5].

أما العلماء فقد ازدادوا قناعة مع هذه الأزمات الجديدة بأن لا سبيل لنجاة الأندلس وخلاصها مما هي فيه، من كرب سوى الالتجاء إلى المرابطين، فبدأت الكتب والوفود تصل إلى يوسف طالبة النصرة[6].

عندما رأى أمير المسلمين أن واجبه الديني يحتم عليه تلبية النداء، فعبر إلى الأندلس في منتصف عام 481هـ، وبعث إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد ويحدد لهم اللقاء عند حصن لييط[7].

لبى أمراء الطوائف النداء، واتجهوا بقواتهم إلى حصن ليط[1]، فشرع الجميع في مهاجمة الحصن، حيث أطبقوا عليه من كل جهة ونصبوا حوله المجانيق

---

[1] ابن بلقين: المصدر السابق، ص 125.

[2] المقري: ج6، المصدر السابق، ص 104.

[3] كانت بلنسية تابعة لحكم المسلمين عن طريق القادر بن ذي النون، حاكمطليطلة السابق. المقري: المصدر السابق،ج6، ص104.

[4] كانت هذه المدينة، تابعة للمعتمد بن عباد. . المقري: المصدر نفسه،ج6، نفس الصفحة.

[5] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص 67.

[6] مؤلف مجهول: المصدر نفسه ، نفس الصفحة.

[7] حصن لييط أو حصن لبيط، ويدعوه الإسبان بـ ALIDO: يقع بين مورسية ولورقة، وهو حصن حصين حصين على رأس جبل شاهق وكان ضمن أملاك المعتمد بن عباد، مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر أخبار المراكشية، المصدر السابق، ص 67.

وشنوا عليه الغارات، ولم يتركوا فنا من فنون الحصار إلاّ نفذوه، ولكن الحصن كان منيعا[2]، وقد دام حصار حصن لييط مدة أربعة أشهر[3]، ثم رفع يوسف الحصار عن لييط وقفل راجعا إلى بلاده، بعدما خانه أهل مورسية فقطعوا عنه الإمدادات الغذائية[4].

لقد كانت غزوة لييط غصة في نفس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فقد تكشف له حقيقة أمراء الطوائف وما هم عليه من تناحر وتخاذل في الدفاع عن حرمة بلادهم، ولا سبيل إلى شفاء الأندلس إلا باجتثاث هؤلاء الأمراء، ويبدو أن يوسف قد اقتنع برأي علماء الأندلس واستقر رأيه على ضرورة التخلص من هؤلاء الأمراء، وبالفعل استفتى يوسف العلماء بالمغرب والأندلس في شأن الأمراء، وانتزاع الأمر من أيديهم وشرعية إزاحتهم عن كاهل الأمة، وقد أفتاه العلماء بجواز خلعهم، وبأنه في حلل مما تعهد لهم به من الإبقاء عليهم في عبوره الأول، لأنهم خانوا الله بمعاهدتهم ألفونسو[5].

وكان ممن استفتى في هذا الموضوع يوسف بن عيسى المعروف بابن الملجوم، وقد أخبر أمير المسلمين أن هؤلاء الأمراء يتظاهر بعضهم على بعض بالنصارى، وأنهم يضربون المسلمين ما لا يطيقون من المكوس والمغارم، وأنهم تركوا الجهاد وصالحوا النصارى وباعوا لهم آلة الحرب من خيل وسلاح وأقوات، فأجابه بأن من كان من الملوك مصرا على هذه الأوصاف وموجودا في الوقت إماما أعدل منه عار من تلك الأوصاف، مؤتمن من ارتكاب ذلك، وهو قادر على قتال المتغلب على المسلمين الموصوف بما ذكر، فله قتاله وعزله عن ولايته عن المسلمين[6].

---

[1] ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 152.

[2] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص 69.

[3] بن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 125.

[4] مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص 70.

[5] ابن خلدون: ج6، المصدر السابق، ص 187.

[6] ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ص 241.

وقد أيد فتوى علماء المغرب والأندلس، علماء أجلاء آخرون منهم الإمام الغزالي والإمام الطرطوشي، يقول الغزالي في شأن أمراء الطوائف:" ...فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارى"[1].

لقد أدت هذه الفتاوى إلى ترجيح كفة التدخل المرابطي في الأندلس، فأمير المسلمين يوسف بسبب تقواه وورعه، لم يكن ليتراجع عن هذا القرار بعد أن أوجبه عليه الشرع.

إن مفهوم الأمة الواحدة الذي تشبث به المرابطون منذ قيام دولتهم وجعلهم يعلنون تبعيتهم للخلافة العباسية، رغم ما كانت عليه من ضعف.

لقد كان الهدف من إسقاط ملوك الطوائف ذو بعدين، الأول آني وهو حماية ما تبقى من الأندلس الإسلامية، أما البعد الثاني فهو بعد استراتيجي بعيد المدى، وهو حماية المغرب الأقصى من الهجمة الصليبية[2].

هنا عبر أمير المسلمين إلى الأندلس عبوره الثالث سنة 483 هـ[3]، فسار إلى طليطلة فأغار على أحوازها، وضرب الحصار حولها وفيها ألفونس، كل ذلك ولم يتقدم أحد من الأمراء الأندلسيين لمساعدته[4]، كان هذا الموقف من طرف أمراء الطوائف مبررا إضافيا لخلعهم.

بدأ يوسف بصاحب غرناطة عبد الله بن بلقين، حيث حاصر المرابطون غرناطة طيلة شهرين، حاول ابن بلقين خلالهما إنقاذ نفسه بتوسيط العلماء لدى يوسف بن تاشفين[5]، ولكن هؤلاء العلماء وبالأخص القاضي ابن سهل، اعتبروا حصار غرناطة فرصة لا تعوض وخير ما ساقه الله، من أجل إنهاء حكم ابن بلقين، فقام القاضي ابن سهل بحث يوسف على التخلص من ابن بلقين، وأمام هذا الوضع الميؤوس منه استسلم الأمير عبد الله بن بلقين وقبل

[1] ابن عذارى المراكشي: المصدر نفسه، ص 242

[2] محمد عنان: المرجع السابق، ص 339.

[3] ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 99.

[4] ابن بلقين: المصدر السابق، ص 154.

[5] ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 154.

الشروط التي قدمها له الفقيه ابن سعدون مبعوث أمير المسلمين يوسف وكان ذلك في 13 رجب 483هـ[1].

بعد استسلام ابن بلقين ونفيه إلى المغرب، توجه المرابطون إلى اشبيلية حيث يقبع المعتمد بن عباد، وهذا الأخير ما جانبه عزم أمره على مناوأة المرابطين ومدافعتهم، ولم يترك للصلح مجالا فباشر في ترميم الأسوار والقنطرة[2]، ووجه دعوة إلى أمراء الطوائف لعقد حلف لمحاربة المرابطين[3]، كما تحالف مع ألفونسو لنفس الغرض، كل هذه التحركات وفتوى العلماء بارتداده جعلت الأمير يوسف يقرر نهائيا التخلص من المعتمد، وأن يسقيه من الكأس التي أسقى بها عبد الله بن بلقين[4].

وبالفعل أرسل يوسف جيشا بقيادة سير بن أبي بكر لاحتلال اشبيلية، وقد تمكن الجيش المرابطي من اقتحام اشبيلية واعتقال المعتمد بن عباد في 22 رجب 484هـ، بعد حصار دام أربعة أشهر، ثم واصل المرابطون عملهم، فاحتلوا المرية[5].

ثم اتجهوا صوب بطليوس إمارة بني الأفطس، وقد أعاد أمير بطليوس المتوكل عمر بن الأفطس نفس السياسة التي اتبعها المعتمد، إذ تحالف مع ألفونس، بل و تنازل له عن مدن مهمة هي اشبونةوشنترينوشنتمرية[6]، مقابل حماية ألفونس له من المرابطين.

شكلت هذه الخيانة مبررا جديدا لدى المرابطين لإنهاء حكم المتوكل، كما أثارت حفيظة سكان بطليوس، فانضموا إلى جهود المرابطين لإنقاذهم من هذا الأمير الخائن[7]، وقد أسفرت جهود الطرفين عن دخول المرابطين بطليوس، واعتقال المتوكل في صفر 487هـ/1074م[8].

---

[1] ابن بلقين: المصدر السابق، ص ص 157،158.

[2] مؤلف مجهول:الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المصدر السابق، ص72.

[3] مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص 73.

[4] ابن بلقين: المصدر السابق، ص 170.

[5] ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ص 170.

[6] سقطت في يد المرابطين في 22 ربيع الأول 484هـ، وكان أميرها المعتصم بن صمادح.

[7] ابن بلقين: المصدر السابق، ص 174.

[8] ابن بلقين: المصدر نفسه، ص ص 174،175.

وبخلع المتوكل طويت الأندلس صفحة أمراء الطوائف، وتوحدت العدوتين بفضل جهود العلماء الدؤوب، وحرصهم على لم شمل الأمة.

لقد كان العلماء في مؤازرتهم لمساعي المرابطين وإشادتهم لهم، ينطلقون في أغلبهم من قناعات دينية راسخة، تتمثل في وجوب مساندة من يقدر أن يدافع عن حرم الإسلام، ويحمي حوزته في الأندلس ويزيل الظلم ويحكم بالعدل[1].

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة نخلص إلى مجموعة من الاستنتاجات نذكر منها:

- كان للعلماء دور بارز مع حلول القرن الخامس الهجري، حيث غير جهدهم الأوضاع في البلاد، بعد أن كانت إمارات متفرقة، استطاعوا تحويلها إلى دولة وطيدة الأركان شامخة البنيان، يتولى مقاليد الأمور فيها المرابطون الذين وحدوا المنطقة في ظل حكومة مركزية واحدة تبسط نفوذها على أرجاء البلاد.
- استطاع العلماء من خلال آرائهم وفتاويهم، توحيد المغرب والأندلس وقد تجلى جهدهم من خلال معركة الزلاقة، التي كان من نتائجها تأخير سقوط الأندلس بيد النصارى مدة قرنين من الزمن.
- لقد مثل العلماء في عهد المرابطين طبقة اجتماعية أثرن في التاريخ السياسي لمنطقة المغرب الأقصى والأندلس، وقد حاول هؤلاء العلماء في معظمهم أن يبذلوا ما استطاعوا من جهد في سبيل نصر الخير والعدل.
- وأهم نتيجة توصلنا إليها في هذا البحث، أن الإمام عبد الله بن ياسين قد شكل استثناء كبيرا، حيث ولد جهده قيام دولة المرابطين، وأعطى الدليل أن صفة العالم ليست عائقا عن التعاطي الصحيح مع السياسة. ويرجع سبب ذلك إلى اقتناع الإمام عبد الله بن ياسين بعلمه وقدرته على تطبيقه في تعاطيه مع أضاع العامة في مجتمعه.

[1] حسن محمود: المرجع السابق، ص 165.

قائمة المصادر و المراجع المعتمدة :

- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج1، نشر دار السلمي، الدار البيضاء 1965.
- ابن أبي زرععلي بن عبد الله الفاسي (ت714ه): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972.
- ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعيالبلنسي (ت608ه): الحلة السيراء، ج2، تح د.حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة 1963.
- ابن الأثيرعلي بن عبد الكريم بن الأثير (ت 630ه): الكامل في التاريخ، ج8، مطبعة دار الصادر، بيروت 1982.
- ابن الخطيبلسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب (ت776ه): أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام –قسم الأندلس- نشر ليفي بروفينسال بعنوان تاريخ اسبانيا الإسلامية، دار المكشوف، بيروت 1956.
- ابن بسامعلي بن بسام الشنتريني (ت542ه): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج2، ق1، تح إحسان عباس، دار الثقافة بيروت 1979.
- ابن بشكوالأبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت578ه): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهموأدبائهم، ج2، ط2، نشر عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة 1994.
- ابن بلقين: التبيان، تح أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط 1995.
- ابن حزمأبو محمد بن أبي أحمد (ت456ه): رسائل ابن حزم الأندلسي، ج3، تح د.إحسان عباس، مكتبة الخانجي، مصر 1960.
- ابن حوقل البغداديأبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت 1979.
- ابن خلدونعبد الرحمن بن خلدون (ت808ه): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر والطباعة والنشر بيروت، 2000.
- ابن خلكانشمس الدين أحمد بن خلكان (ت681ه): وفيان الأعيان، ج7، تح د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

- ابن عبد الملك المراكشيمحمد بن عبد الملك المراكشي (ت703ه): الذيل والتكملة، السفر الثامن، ق 2، تح محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 1984.

- ابن عذارى المراكشيأحمد بن محمد بن عذارى: البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب، ج 3، ط1، تح ومراجعة ج س كولان وليفي بروفينسال، دار الثقافة بيروت 1980.

- أبو عبيد الله البكريأبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري (ت487ه): المسالك والممالك، ج2، تح أدريان فان ليوفان، وأندري فيري، الدار العربية للكتاب 1992.

- أحمد العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ب.ت.

- الإدريسيمحمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسيني (ت560ه): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق بصفة المغرب وأرض السودان، مصر والأندلس، نشر النص العربي وترجمه دغويهودوزي، المطبعة الشرقية لندن1866.

- الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.

- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة 1957.

- حسن محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة 1957.

- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ج2، نشر العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت 1992.

- الحميريمحمد بن عبد المنعم الحميري (ت727ه): الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط1، تح إحسان عباس بمطابع هيدلبرغ، مكتبة بيروت، 1975.

- سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1985.

- شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، تر محمد مزالي والبشير سلامة، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1970.

- عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب (عبد الله بن ياسين) دار الكتاب اللبناني، دار الكتابة والنشر، بيروت 1971.

- عبد المنعم حميدي: تاريخ المغرب والأندلس في عهد المرابطين، مؤسسة شباب الجامعة، 1986.

- عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا مع نشر وتح، أبي بكر العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988.

- القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج7، تحقيق مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط 1968.

- محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس "دول الطوائف"، مكتبة الخانجي، القاهرة 1988.

- المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط07، تح محمد العربان ومحمد العلمي، دار الكتاب المغرب 1978.

- مريم قاسم الطويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ط1، دار الكتب العلمية، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، 1994.

- المقري: نفخ الطيب، ج5، تح يوسف اليقاعي، دار الفكر، يروت 1986.

- مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، المغرب 1979.

- مؤلف مجهول: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972.

- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط2، تر محمد عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة 1952.